ملامح شخصية الصعلوك
في ديوان عروة بن الورد

م.م. علي حسين يوسف عناد[1]

Abstract

This research is entitled the " The features of the pauper's personality in Aurwa bin Al-ward divan " This research tries to focus on the aspects of the human side in the divan of this poet.

The research consists of preface three sections and conclusion. The preface is about the meaning of the (pauper), the first section tries to focus on the fighter personality of the pauper, while the second is about the cooperative personality of the pauper and the third section is about the immigrant personality of the pauper.

المقدمة

شكلت الصعلكة في الأدب العربي ظاهرة استرعت اهتمام الباحثين، قديماً وحديثاً لما امتازت به من فرادة في التفكير والسلوك ، وما ترتب على ذلك من ردة فعل اتسمت غالباً بالسلبية من قبائلهم لأن القبيلة هي المسيطر الأساس على الفرد آنذاك ومن ثم لا يمكن لأحد أن يتنكر لهذا الضابط ، وهذا البحث ينطلق أساساً من أهمية هذه الظاهرة، محاولا استجلاء صورة الصعلوك عند أهم شعرائها – عروة بن الورد – الذي طالما حاول رسم ملامح شخصية الصعلوك في شعره.

وتبعاً لطبيعة الموضوع فقد قسم على ثلاثة مباحث سبقها تمهيد في مفهوم الصعلكة لغوياً وعرفياً، وكان المبحث الأول في شخصية الصعلوك المكافحة بحسب ما رسمها عروة، أما المبحث الثاني فكان مداره

١ - الكلية التربوية المفتوحة /كربلاء

http://abu.edu.iq

الشخصية المغتربة عند الصعلوك، وكان ثالث المباحث في النزعة الاشتراكية للشخصية الصعلوكية وقد وجد الباحث ان المنهج التحليلي الذي يعتمد النص أساساً في استجلاء الحقيقة هو الأنسب لهذه الدراسة، مع الإفادة من المناهج البحثية الأخرى.

ولابد من التنويه إلى أن الولوج في عالم الصعلكة لا يخلو من متاعب ولكن هذه المتاعب قد تتلاشى أمام طرافة الموضوع ومتعة البحث والسعي الجاد لاكتشاف الحقيقة.

نسأل الله أن ينال البحث رضا واستحسان القراء انه نعم المولى والنصير.

التمهيد :الصعلوك بين المعنى اللغوي والمفهوم الاجتماعي

في لسان العرب يرد التصعلك بمعنى الفقر فالصعلوك هو الفقير الذي لا مال له وزاد الأزهري ولا اعتماد وتصعلكت الإبل أنجردت أوبارها وطرقها ورجل مصعلك الرأس صغيرة [٢].

والجامع لهذه المعاني: الصغر والإنجراد[٣] ومعنى هذا ان أصل التصعلك ليس الفقر يؤيد هذا الرأي وجود عروة ذاته فهو ليس فقيراً فالفقر مظهر من مظاهر التصعلك لا أصلاً له كما ذهب ابن دريد الى ذلك[٤] وخالفه فيه الدكتور يوسف خليف الذي وجد بأن الفقر يمثل ((الطور المعنوي في معناه – أي الفقر – الذي يأتي بعد الطور الحسي)). [٥]

ويبدو إن ما ذكرته المعاجم العربية غير كاف لاستجلاء صورة واضحة لشخصية الصعلوك إذ إنها جعلت التصعلك مرادفاً للفقر مما قد يثير تساؤلات عدة فليس كل فقير صعلوك لاسيما اذا عرفنا ان الفقر والجوع كان السمة الظاهرة في حياة العرب عموماً مما يعني إن هناك – فضلاً على الفقر – سمات أخرى لابد أن يتميز بها الصعلوك.

لذلك فإن الباحث يرى إن الصعاليك مسكونون بروح التمرد والثورة على النظام القبلي الذي أفقدهم توازنهم الاجتماعي مما أدى الى أن يكون سلوكهم (صراعياً) بدل أن يكون سلوكاً تعاونياً، فلا يشترط أن يكون الصعلوك دائماً هو الفقير، فعروة بن الورد لم يكن بحاجة الى المال في أغلب أحواله [٦]. وبهذا المعنى فإن الصعلكة كانت ردة فعلٍ ولم تكن فعلاً بحد ذاتها ولو زالت أسبابها لانتهت هي كذلك.

والناظر في الشعر الصعلوكي قد يلاحظ ما يذهب اليه الباحث دون عناء في تلك المضان اذ يجد أن الصعلكة غير الفقر، بل أننا نجد من بين الصعاليك من يؤيد هذا الرأي في شعره، فهذا عروة يطرد الصعلوك (الفقير) من عائلة الصعلكة حينما يقول[٧]:

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله
مصافي المشاش آلفاً كل مجزرِ

٢- ينظر: لسان العرب: ٤/٢٤٥١ مادة صعلك.
٣- ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٣/١٢١
٤- ينظر: الاشتقاق: ٢٧٩
٥- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ٢٠ (الهامش).
٦- ديوان عروة بن الورد: ٤٣
٧- ديوان عروة بن الورد: ٤٥ والمشاش: العظم الهش الممكن مضغه، والمجزر: موضع نحر الإبل.

http://abu.edu.iq

ويهيب بالصعلوك الحق في قوله [٨]:

مطـــــلاً علـــــى أعدائـــــه يزجرونـــــه

بســـــاحتهم زجـــــر المنـــــيح المشـــــهرِ

فالصعلكة عند الصعاليك أنفسهم لا تعني الفقر أبداً بل تعني الشجاعة والإقدام والكفاح ونبذ الكسل. [٩]

ومن الطبيعي أن ينتقم المجتمع العربي لنفسه من الصعاليك لخروجهم على مألوفة وهذا ما يفسر تسمية الصعاليك بأكثر من أسم كلها ذات دلالات سلبية مثل (الفقراء الأوباش والبدورة والجعيدية والحرافيش والخلعاء والذعار والسرّاق) وغيرها [١٠]. وبهذا يمكن أن نلحظ إن مفهوم الصعلوك في المتن العربي الرسمي يعد مفهوماً سلبياً ولطالما قرن ذلك المفهوم بالسلب والإغارة وإثارة الخوف في نفوس الناس فهم الذين ((روعوا الجزيرة العربية في عصرها الجاهلي وأثاروا في أرجائها الرعب والفزع)) [١١] ومن ثم ذهبت المخيلة العربية ترسم للصعلوك في صورة عجائبية بعيدة عن الواقع وقد تبدو متناقضة، فلقد صور الصعلوك بصورة الفاتك الذي يمتلك من القوة الجسدية ما يجعله يثير الرعب في نفوس أشجع الفرسان، [١٢] ويطارد الظباء فيلحق بها أو يسبقها[١٣] وقد صور الصعاليك أيضاً على أنهم أقرب الى الحياة الحيوانية لذلك سموا بـ (ذؤبان العرب) تشبيهاً لهم بالذئاب في قوة فتكها وغدرها لكننا نجد على الضد من ذلك صورة مختلفة للصعلوك تقدمها لنا أشعار الصعاليك صورة توحي بالنبل والإيمان بالقيم الإنسانية الشريفة [١٤] مما جعل الباحث في شك من أمر تلك المرويات ومدى صحتها في تصوير شخصية الصعلوك ووصف الصعلكة والتصعلك بالطابع السلبي والعدائي لذلك وجد الباحث إن حقيقة الصعاليك تتضح في أشعارهم أكثر مما تتضح في تلك الأخبار وقد يكون من التجني البحث عنها في تلك المرويات، لان طابع المبالغة والصنعة واضح عليها بيّن ، وقد يكون من الأفضل جعل تلك المرويات جنساً إبداعيا قائماً بذاته لا علاقة له بحقيقة الصعاليك المبثوثة في أشعارهم لذلك فإن هذا البحث استقراءً لصورة الصعاليك وحقيقتهم في ديوان عروة بن الورد الذي وصف بأنه سيد الصعاليك وأبوهم.

إن اثر البيئة الجغرافية لشبه جزيرة العرب كان واضحاً في تكوين ملامح الشخصية العربية آنذاك، فهذا التطرف في درجات الحرارة والاختلاف البين في حالات الطقس ربما كان مسؤولاً عن تكوين شخصية العربي التي تبدو متطرفة تبعاً لتطرف بيئتها فالبدوي ((لا يعرف القصد لا في الخير ولا في الشر مبالغ في عداوته، مبالغ في محبته، لا يتورع عن الغدر، لكنه اذا عاهد على الوفاء بذل حياته في سبيل عهده، يغزو

٨- ديوان عروة بن الورد: ٤٥ وينظر: موسوعة الشعراء الصعاليك: ٧٣/٢.والمنيح من القداح الميسر المعروف بالسوء.

٩- ينظر: ديوان السليك بن السلكة ، ١٠٠ وديوان عروة بن الورد: ٤٣ وديوان الشنفرى: ٥٥ وموسوعة الشعراء الصعاليك: ١٦/١- ٢٠ والحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٣٠٠.

١٠- ينظر ، موسوعة الشعراء الصعاليك: ٢/١.

١١- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ٣٩.

١٢- روى ان عمرو بن معد كرب صرح بأنه لا يخشى أحد الا أربعة أحدهم صعلوك وهو السليك بن السلكة: ينظر الأغاني: ٢٤٦/٨.

١٣- وهذا ماروي عن الشنفرى ، ينظر ، مجمع الأمثال للميداني ٢٣٣/٢ مادة (شفر) ومثل ذلك ذكر عن تأبط شراً ، ينظر الأغاني: ٢١٠/١٨ ومثله ايضاً ماذكر عن السليك بن السلكة في الشعر والشعراء: ٣٥٣/١.

١٤- ينظر ، الأغاني ١٢٦/٢ والخزانة: ١٨٥/١ نصيحة أحد بني شيبان للنعمان بن المنذر بعدم الهرب من كسرى واللجوء الى صعاليك العرب ليتلاعبوا به، وتتخطفه ذئابهم.

http://abu.edu.iq

وينهب حتى يكاد يفقد حياته ثم يوزع ما يغنمه على سواه))[١٥] فضلاً على ذلك فإن التنقل للبحث عن مكامن العشب جعلت البدوي لا يألف الاستقرار بل يستهجنه ويحتقر الزراعة والصناعة ولا يجد نفسه إلا بالرعي والتجارة والصيد والنهب كما يرى ابن خلدون [١٦] ثم إن البناء القبلي بتكوينه الذكوري وطبقيته وعدم تهاونه مع كل من يحاول أن يخرق ذلك البناء كان سبباً في تكوين جماعات من المخلوعين لأسباب أخلاقية والمنبوذين بسبب هجنتهم والرافضين لعدد من الأعراف الصارمة [١٧] فكانت تلك الجماعات تشترك كلها في هم واحد يتمثل في عدم تقبل المجتمع لهم مما ولد في نفوسهم غاية واحدة تتجه الى الخروج على ذلك المجتمع الذي لم ينصفهم – وهكذا تشكلت جماعة الصعاليك لتكون طبقة خارجة على المألوف الاجتماعي، طبقة غير محكومة ولا خاضعة لما هو سائد وقار في نظام القبيلة.

إن غياب سلطة الدولة وعدم وجود زعامات متزنة وغياب العدالة الاجتماعية التي تساوي بين الغني والفقير وطبيعة الأرض الصحراوية وقسوة الحياة ووجود الفراغ لعدم الاهتمام بالأعمال اليومية، يمكن أن تكون أسباباً وجيهة لنشوء الصعلكة. [١٨]

وإذا عرفنا إن معظم هذه الأسباب ولاسيما غياب العدالة والعوز المادي ظلت ملازمة للمجتمع العربي حتى في العصور الحديثة لتبين لنا ان الصعلكة شكلت ظاهرة تجاوزت الأفراد الى مجموعات أكبر، فقد احترفت قبائل برمتها الصعلكة كما هو حال قبيلتي هذيل وفهم[١٩].

ثم أنها – أي الصعلكة – لم تنته –بانقضاء العصر الجاهلي بل استمرت الى يومنا هذا [٢٠]. مع وجود فوارق فرضتها التغيرات السياسية والاجتماعية، مما جعلها ولاسيما في العصر الحديث تتحول الى ظاهرة اجتماعية قولية أكثر من كونها ممارسات هجومية قتالية.

المبحث الأول: الشخصية المكافحة

إن الناظر في شعر عروة يجد أن الرجل مسكون بهاجس الثورة، اذ لا تقتصر الثورة عنده على الأوضاع غير الإنسانية التي كانت سائدة آنذاك بل تتعداها لتصبح ثورة داخلية أكسبت شخصيته طابعاً حركياً رافضاً لأي سكون، ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا رفض عروة لنفسه أو لغيره من الصعاليك أن يكونوا ممن يُطعمون ولا يَطعمون ((وأشد ما يؤذي عروة قعود بعض الصعاليك عن تتبع رزقهم وعلة معيشتهم، وهم قادرون على ذلك، وقد صور تصويراً حاذقاً طبيعة الصعلوك الخامل هذا من جهة، ومن جهة أخرى طبيعة الصعلوك النشط، فهو يكره الأول لأنه خامل قانع ويحب الثاني لأنه يرى فيه شخصيته وقوة شجاعته ولا

١٥- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ٧١.
١٦- مقدمة ابن خلدون: فصل ٢١ الباب ٥ الكتاب الأول: ٤٠٤.
١٧- ينظر، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول: ٥٥ والمعجم المفصل في الأدب: ٥٨٥/٢.
١٨- ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ٣٠٠ وشعر الصعاليك؛ منهجه وخصائصه: ٤٢.
١٩- ينظر، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي: ٣٧٥.
٢٠- ينظر، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، حسين عطوان و الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، حسين عطوان و الشعراء الصعاليك في العصر الإسلامي، حسين عطوان، و الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، حسين عطوان و موسوعة شعراء الصعاليك ١٠/٢ وما بعدها

http://abu.edu.iq

يعذر إلا ذوي العاهات والمرضى والعاجزين)) [٢١] وبهذا فإن شعر عروة دعوة أراد لها أن تكون دستوراً يسري على الصعاليك أجمعهم.

يقول عروة: [٢٢]

لحـــى الله صـــعلوكاً إذا جـــن ليلـــه
مصـــافي المشـــاش آلفـــاً كـــل مجـــزرِ
يعـــد الغنـــى مـــن نفســـه كـــل ليلـــة
أصـــاب قراهـــا مـــن صـــديق ميســـرِ
ينـــام عشـــاء ثـــم يصـــبح طاويـــاً
ينـــام عشـــاء ثـــم يصـــبح طاويـــاً
يحـــث الحصـــى عـــن جنبـــه المتعفـــرِ
قليـــل التمـــاس الـــزاد إلا لنفســـه
اذا هـــو أمســـى كـــالعريش المجـــورِ
يعـــين نســـاء الحـــي مايســـتعنه
ويمســـي طليحـــاً كـــالبعير المحســـرِ
ولكـــن صـــعلوكاً صـــحيفة وجهـــه
كضـــوء شـــهاب القـــابس المتنـــورِ
مطـــلاً علـــى أعدائـــه يزجرونـــه
بســـاحتهم زجـــر المنـــيح المشـــهرِ
بســـاحتهم زجـــر المنـــيح المشـــهرِ
بســـاحتهم زجـــر المنـــيح المشـــهرِ
إذا بعـــدوا لايـــأمنون اقترابـــه
إذا بعـــدوا لايـــأمنون اقترابـــه
تشـــوف أهـــل الغائـــب المتنظـــرِ
فـــذلك إن يلـــق المنيـــة يلقهـــا
حميـــداً وإن يســـتغن يومـــاً فأجـــدرِ

٢١ - موسوعة الشعراء الصعاليك: ٢/٦٩.

٢٢ - ديوان عروة بن الورد: ٤٣. والقرى ما يقدم للضيف ، والمتعفر: الممرغ في التراب، والعريش المجور: الخيمة الساقطة على الأرض والطليح: المعيي ،والمحسر: الضعيف، والقابس المتنور: طالب النور من بعيد.

http://abu.edu.iq

يصور لنا عروة في هذه الأبيات نموذجين من الصعاليك بدلالة قوله في البيت الأول (لحى الله صعلوكاً) وقوله في البيت السادس (ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور)، فالنموذج الأول مثال مرفوض عنده يستحق الاستهجان إذ هو كالكلب الذي يعيش على فتات المجازر وجل همته أن يملأ بطنه ليصبح ناعماً حتى ان النساء يستعنه لقضاء حوائجهن فهو كالبعير الذليل.

أما النموذج الثاني فهو نموذج الصعلوك الفاضل الذي قرنه عروة بالأعداء لكثرة مزاحمته إياهم ودفعهم له حتى أنهم يخافونه ولا يأمنون اقترابه وكأنهم ينتظرون عودته ليغزوهم في كل لحظة كما ينتظر الأهل غائبهم فهذا الصعلوك تتجاوز همته إشباع بطنه أو طلب السلامة بل أنه يستقبل المنية وهو راض وإن كتبت له السلامة فذلك أجدر به، والملاحظ على النص المتقدم يرى بوضوح حركية النص لدى عروة، فهو مع الحركة المجدية – وإن كانت خطرة – وضد السكون السلبي – وإن كان آمناً – .

وفي أبيات أخرى نجد عروة وكأنه يقدم الأسباب المقنعة لخروج الصعلوك للقتال فيقول: [٢٣]

إذا المـــرء لم يطلـــب معاشـــاً لنفســـه
شـــكا الفقـــر أو لام الصـــديق فـــأكثرا
وصـــار علـــى الأدنـــين كـــلا وأوشـــكت
صـــلات ذوي القربـــى لـــه أن تنكـــرا
ومـــا طالـــب الحاجـــات مـــن كـــل وجهـــة
مـــن النـــاس إلا مـــن أجـــد وشمـــرا
فســـر في بـــلاد الله والـــتمس الغنـــى
تعـــش ذا يســـارٍ أو تمـــوت فتعـــذرا

فعروة في هذه الأبيات يضع اشتراطا لابد للصعلوك من الالتزام به ليعيش في يسار أو يموت فيعذرا لذلك فإنه – أي الصعلوك – (اذا لم يطلب معاشاً شكا الفقر أو لام بصديق) وبخلاف ذلك فإنه سيكون عالة على غيره وقد يتنكر له حتى أقاربه، فخير له أن يشمر عن ساعده الجد ويسعى في الأرض جاهداً حراً، وهنا رفضٌ للذل والحصول على الرزق مع المن فعلى الصعلوك ان يحصل على رزقه بنفسه وان لم يفعل ذلك فالموت أولى له سواءً كان جوعاً أو قتلاً.

وقال عروة: [٢٤]

اذا قيـــل يـــابن الـــورد أقـــدم الى الـــوغى
أجبـــــت فلاقـــــاني كمـــــي مقـــــارعَ

---

٢٣ - م. ن: ٥٦.

٢٤ - م.ن: ٦١. والكمي المقارع: الشجاع الذي يرتدي السلاح ، ويقصد الشاعر في البيت الثاني سيفه الأصيل القاطع الذي يشبه لونه لون الملح، والخوامع: الجائعة ، والحين: الهلاك.

http://abu.edu.iq

بكفـــي مـــن المـــأثور كـــالملح لونـــه
حـــديث بـــاخلاص الـــذكورة قـــاطعَ
فأتركـــه بالقـــاع رهنـــاً ببلـــدة
تعـــاوره فيهـــا الضـــباع الخوامـــعَ
محـــالف قـــاع كـــان عنـــه بمعـــزل
ولكـــن حـــين المـــرء لابـــد واقـــعَ
فـــلا أنـــا ممـــا جـــرت الحـــرب مشـــتك
ولا أنـــا ممـــا أحـــدث الـــدهر جـــازعَ
ولابصـــري عنـــد الهيـــاج بطـــامح
كـــأني بعـــير فـــارق الشـــوك نـــازعَ

وفي هذه الأبيات تتجلى (أنا الشاعر) واضحة بدلالة الألفاظ (يا ابن الورد، أجبت، بكفي، فأتركه، أنا، بصري، كأني) مما يجعلنا أمام حقيقة إن الصعلوك لا ينتهج في شعره النهج الشعري السائد الذي كثيراً ما يتحدث الشاعر من خلاله بضمير الجماعة (نحن) بل على الضد من ذلك اذ ((يصبح ضمير الفرد (أنا) أداة التعبير فيه بدلاً من ضمير الجماعة (نحن) الذي هو أداة التعبير في الشعر القبلي وتصبح المادة الفنية للشعر مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته، ومعنى هذا ان ظاهرة الغناء لشخصية الشاعر القبلي في شخصية قبيلته التي نلاحظها بوضوح عند أصحاب المذهب القبلي في الشعر الجاهلي قد اختفت من مجموعة الشعر داخل الصعلكة))[٢٥] وهذا يتجسد في قول عروة: [٢٦]

لعـــل انطلاقـــي في الـــبلاد ورحلـــتي
وشـــدي حيـــازيم المطيـــة بالرجـــلِ
ســـيدفعني يومـــاً الى رب هجمـــة
يـــدافع عنهـــا بـــالعقوق وبالبخـــلِ

فعروة لا يجد أمامه سوى المجازفة فترحاله من مكان لآخر قد يعرضه الى المواجهة، لكنه مع ذلك فهو لا يستكين أو يتهاون في مسعاه الكفاحي.

يقول عروة: [٢٧]

اذا المـــرء لم يبعـــث ســـواماً ولم يـــرح
عليـــه ولم تعطـــف عليـــه اقاربَـــه
فللمـــوت خـــير للفتـــى مـــن حياتـــه

٢٥ - البنية السردية في شعر الصعاليك: ١٩.
٢٦ - ديوان عروة بن الورد: ٧٤. والحيازيم: الصدور، ورب هجمة: مستحقها.
٢٧ - م.ن: ١٥. والسوام: الماشية.

http://abu.edu.iq

فقـــيراً ومـــن مـــولى تـــدب عقاربَـــه

وهذا معيار آخر يقدمه عروة لبؤس الإنسان الذي يصل به الحد أن يتمنى الموت إن هو يملك على الأقل الإبل وماشية أو عطفا من أقاربه وكأن في هذين البيتين حقيقة تشي بأن عروة كان فاقداً لهذه الأشياء وما أمامه سوى الغزو للحصول عليها، لأنه من الصعوبة أن يغير من نظرة المجتمع حتى يحصل على ما يجعله سيداً في عيون الآخرين لذلك يقول عروة: [٢٨]

دعـــــيني للغنـــــى أســـــعى فـــــإني

رأيـــــت النـــــاس شـــــرهم الفقـــــيرَ

وأبعـــــــدهم وأهـــــــونهم علـــــــيهم

وإن أمســـــى لـــــه حســـــب وخـــــيرَ

ويقصـــــــيه النـــــــدى وتزدريـــــــه

حليلتـــــــه وينهـــــــره الصـــــــغيرَ

ويلفـــــى ذو الغنـــــى ولـــــه جـــــلال

يكـــــاد فـــــؤاد صـــــاحبه يطـــــيرَ

قليـــــل ذنبـــــه والـــــذنب جـــــمّ

ولكـــــن للغنـــــى رب غفـــــورَ

هنا نلاحظ ان الشاعر قد عمد الى المبالغة في تصوير الفقير ليس على صعيد التصرفات والأفكار فحسب بل على صعيد اللغة أيضاً حين استخدم الضمير (الهاء) للغائب وكأنه حتى على صعيد النص لا وجود له بل هو غائب لأن النص هنا تكريس لصورة الغني التي حاول الشاعر رسمها.

فعروة في هذه الأبيات يضع المبرر للخروج وذلك من خلال الموازنة التي عقدها بين الغني والفقير ونظرة المجتمع لكل منهما وشتان مابين النظرتين فالفقير من شرار الناس وأهونهم حتى ان زوجته تزدريه وهو ينهر حتى من الصغار على الضد من الغني الذي يحظى بالاحترام وإن لم يكن أهلاً له، كذلك فالخروج من هذا الوضع يتطلب عدم إجابة الأعداء وإظهار الشجاعة فيقول: [٢٩]

أرى أم حســـــان الغـــــداة تلـــــومني

تخـــــوفني الأعـــــداء والـــــنفس أخـــــوفَ

لعـــــل الـــــذي خوفتنـــــا مـــــن أمامنـــــا

يصـــــــادفه في أهلـــــــه المتخلـــــــفَ

يقدم عروة صورة حية للصعلوك المفضل لديه من خلال إيمانه بحكمة الإقدام اذ ليس هناك بد سوى مواجهة الأعداء فهو أفضل عنده من مداهمة الموت له وهو متخلف عند أهله ((حتى أصبح الصعلوك مثلاً

٢٨ - م. ن: ٥٨. والخير: الأصل والشرف، والحليلة: الزوجة.

٢٩ - م. ن: ٦٩. وأخوف: أكثر إخافة للأعداء، ويريد في البيت الثاني إن الموت قد يداهم من هو قاعد في البيت.

http://abu.edu.iq

يضرب في الشجاعة)) [٣٠] وفي مروج الذهب وصف أحد الأشخاص قتال المهلب ضد الخوارج قائلاً ((كان يقاتلهم بجنده مقاتلة الصعلوك)) [٣١].

وكفاح عروة طالما أوصله – مثلما أوصل غيره من الصعاليك – الى أن يجعل منه سلوكاً شخصياً يحمل دلالتين فهو أولاً يعني الحرية ومن ثم – وهذا ثانياً – فإنه يعني الخصوصية الفردية، لذلك يسعى عروة أن تكون حرية الصعلوك كسراً لأنماط القهر (الطبقية، الفقر) وخروجاً عليها من خلال خصوصية الأداء والسلوك المتفرد الذي يسوغ ذلك الكسر، يقول عروة [٣٢].

ومـــن يـــك مثلـــي ذا عيـــال ومقـــتراً

مـــن المـــال يطـــرح نفســـه كـــل مطـــرحِ

ليبلـــغ عـــذراً أو يصـــيب رغيبـــة

ومبلـــغ نفـــس عـــذرها مثـــل مـــنجحِ

فللصعلوك – هنا – مبرراته التي تدفعه للتمرد على المجتمع غير الفاضل- من وجهة نظره - هذه المبررات على الرغم من كونها مصبوغة بصبغة ذاتية (ومن يك مثلي) إلا إنها قد تنطبق على الآخرين ومن ثم فإننا إزاء مشروطية (ومن يك مثلي يطرح نفسه كل مطرح) وكأن عروة يجعل من حالة فقره وبؤسه قاعدة للخروج على المجتمع ومقياساً لتبرير سلوك التمرد. فالصعاليك – وعروة سيدهم – ((اعتمدوا على كسر طوق الانتماء الذي يحمي وجودهم فقطعوا كل أواشج القربى بينهم بين ذويهم واعتقدوا أنهم قادرون على بناء نظام جديد)) [٣٣]. وبذلك يمكننا أن نعد عروة وأقرانه أول نموذج للمعارضة بجناحيها السلمي والحزبي وإن كانت برامجهم بسيطة لا تتعدى سبل العيش.

يقول عروة [٣٤]:

لعمـــري لـــئن عشـــرت مـــن خشـــية الـــردى

مـــن المـــال يطـــرح نفســـه كـــل مطـــرحِ

ليبلـــغ عـــذراً أو يصـــيب رغيبـــة

ومبلـــغ نفـــس عـــذرها مثـــل مـــنجحِ

البيت دلالة على أقدام عروة بن الورد وفيه أيضا أسطورة من أساطير العرب القديمة ملخصها ((أن الرجل اذا أراد دخول قرية فخاف جنها أو وباءها فوقف على مدخلها وعشر – نهق عشراً – كما ينهق الحمار ثم دخلها لم يصبه شيء)) [٣٥].

وفي البيت الثاني يفخر الشاعر بقيس بن زهير والربيع بن زياد العبسيين، وهذا دليل على أن الشاعر برغم من تحرره ورفضه لممارسات قبيلته الا أنه ظل منتمياً لتاريخها وهاهو يفخر بأجداده، والدليل الآخر

---

٣٠ - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ٣٩.
٣١ - مروج الذهب: ١٤٨/٢.
٣٢ - ديوان عروة بن الورد: ٢١.والمقتر: الفقير، والمطرح: البلاء والمشقة، والرغيبة: المال، والمنجح: الغانم.
٣٣ - البنية السردية في شعر الصعاليك: ١٨.
٣٤ - ديوان عروة بن الورد: ٥٩ – ٦٠
٣٥ - صبح الأعشى: ١/ ٧- ٤٠٨

http://abu.edu.iq

على بقاء شيء من الروابط للصعاليك مع قبائلهم هو أن عروة كان يخير من معه بعد امتلاكهم المال أما البقاء معه أو الالتحاق بقبائلهم.

المبحث الثاني : الشخصية الإشتراكية (التكافلية)

الصعلوك يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه، ويمكن أن يكون المصداق الدقيق لهذه المقولة الشاعر عروة بن الورد الذي جسد الإنسانية في أدبه، فأدب عروة ((يروقنا بعاطفته ولاسيما نزعته الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحدب على ذوي البؤس)) [٣٦].

والحق إن النزعة الاشتراكية عند عروة ليست فكرة عابرة ولاهي تبجحاً بكرم الذات، إنما تمثل عنده حالة من الاستعداد المستمر لتوزيع ما يغنمه في الوقت ذاته فإن النزعة الاشتراكية قد جسدت على أرض الواقع من لدن عروة وبصورة شهد بها الناس، فالشعراء ((الصعاليك – وعروة – زعيمهم ورائدهم وموجه تفكيرهم – هم خير من تتمثل فيهم الحياة الاشتراكية في تآلفهم ونضالهم في سبيل لقمة العيش وفي نقمتهم على البخلاء والمقترنين، وموقفهم الاشتراكي القائم على عدم استئثار الأغنياء بالثروات والمكاسب، وعلى ضرورة اقتسام الأموال وتوزيعها تحقيقاً لمبدأ المساواة بين الجميع)) [٣٧].

لقد تضافرت مجموعة من العوامل لخلق هذا النفس الاشتراكي عند الصعاليك عموماً – وعروة خصوصاً[٣٨] من أهمها: ان النزعة الاشتراكية بما إنها تمثل نقيضاً للاستئثار بالمال واحتكاره فقد كانت عند الصعاليك موجهة ضد أولئك الأثرياء البخلاء الذين يكنزون الأموال على حساب تجويع الآخرين، وفي الوقت ذاته فقد تكون اشتراكية الصعاليك تمثل استهانة بالمال تماشياً مع استهانتهم بالحياة، تلك الحياة التي أسودت في أعينهم، فلم تعد تساوي عندهم شيئاً ذي بال.

ويمكن القول انطلاقا من تفكير عروة بن الورد الاشتراكي إن الصعلوك إنسان نبيل يجيز لنفسه أن يأخذ من الغني ليطعم الفقير ولو عنوة، وهو بهذا يصور الصعلوك بأنه اشتراكي النزعة، يهدف من اشتراكيته أن يكون للفقراء نصيب في مال الأغنياء فالصعلوك إنسان باحث عن العدالة والتوازن الطبقي، لذلك يقول عروة بن الورد [٣٩]:

فـــإذا غنيـــت فـــإن جـــاري نيلـــه

مـــن نـــائلي وميســـري معهـــودَ

---

٣٦ - الجامع في تاريخ الأدب العربي: ١٧٣.

٣٧ - موسوعة الشعراء الصعاليك: ٢/ ٦٦- ٦٧.

٣٨ - سمي عروة بـ (عروة الصعاليك) لأنه كان يضم الصعاليك والفقراء اليه ويجعل لهم شيئاً في الفيء ينظر، المذاكرة في ألقاب الشعراء: ٤٠.

٣٩ - ديوان عروة بن الورد: ٢٧.

http://abu.edu.iq

إن عروة في هذا البيت يقدم دليلاً على إشتراكية الصعلوك االذي يؤمن بأن الثروة – وإن كانت متأتية عن طريق السلب – لابد أن توزع بعدالة بين الناس، وهذا وحده يمكن أن يكون حكمة ربما آمن بها كل الصعاليك يقول عروة[٤٠]:

مـــا بـــالثراء يســـود كـــل مســـود

مثـــرٍ ولكـــن بالفعـــال يســـودَ

هذا لاشك يتقاطع مع مفاهيم المجتمع آنذاك في حين انه يبرر لقبائلهم أخذ موقف معادٍ منهم وهذا ما أشار له القرآن { أنطعم من لو يشاء الله أطعمه } فالنظرية القبلية قائمة علي ان ما يفعله الإنسان هو ملك له ومن ثم ليس لأحد حق في مشاركته أو أخذ جزء منه مما يولد تقاطعاً بين الفكر الصعلوكي والفكر القبلي.

لذلك فإن من لا يؤمن بهذه الحكمة يكون موضع استهجان من لدن عروة فيقول [٤١]:

إنـــي أمـــرؤ عـــافى إنـــائي شـــركةً

وأنـــت امـــرؤ عـــافى إنائـــك واحـــدَ

أتهـــزأ مـــني أن سمنـــت وأن تـــرى

بـــوجهي شـــحوب الحـــق والحـــق جاهـــدَ

أقســـم جســـمي في جســـوم كـــثيرة

وأحســـو قـــراح المـــاء والمـــاء بـــاردَ [٤٢]

ففي هذه الأبيات يعقد عروة موازنة بينه – وبصفه ممثلاً للصعاليك عامة – وبين الأغنياء الذين يهزأون من شحوب وجهه ليصل الى حقيقة مفادها إن هؤلاء الأغنياء على الضد تماماً مع اشتراكيته، فإناءه (شركة) مع الآخرين أما الغني فلا يشاركه في إناه أحد، لذلك لابد أن يعتريه الشحوب مقابل (سمنة) ذلك الغني.

إن عروة لم يكن فقيراً بحاجة الى المال، ولم يكن أسود اللون، ولم يكن مخلوعاً من قبيلته لكي نقول إن صعلكته كانت لأحد هذه الأسباب، بل إن حقيقة الصعلكة عنده كانت تضامناً مع المعوزين والمحتاجين وكانت أيضا نابعة من حس اجتماعي مرهف وتضحية نادرة [٤٣].

ويرسم عروة صورة للصعلوك، يتضح من خلالها اشتراكيته في أوضح صورها، يقول عروة [٤٤]:

وســـائلة أيـــن الرحيـــل ؟ وســـائل

ومـــن يســـأل الصـــعلوك أيـــن مذاهبَـــه ؟

مذاهبـــــه أن الفجـــــاح عريضـــــة

---

٤٠ - م. ن: ٢٧.

٤١ - م. ن: ٣٠.والعافي: طالب المعروف.

٤٢ - ورد البيت في رسالة الصاهل والشاحج هكذا (أقسم نفسي...) رسالة الصاهل والشاجح: ٤٦٩.ويريد بجسمي: زاد جسمي وطعامه.

٤٣ - ينظر: موسوعة الشعراء الصعاليك: ٢/ ٧٣.

٤٤ - ديوان عروة بن الورد: ١٥. ولعل السائلة زوجته. والفجاج: الطريق بين الجبال ،

http://abu.edu.iq

إذا ضـــــن عنـــــه بالفعـــــال، أقاربَـــــه
فـــلا أتـــرك الأخـــوان مـــا عشـــت للـــردى
كمـــــا إنـــــه لا يـــــترك المـــــاء شـــــاربَه
ولا يستضـــــام الـــــدهر جـــــاري ولا أرى
كمـــن بـــات تســـري للصـــديق عقاربَـــه
وإن جـــــارتي ألـــــوت ريـــــاح بيتهـــــا
تغافلـــت، حتـــى يســـتر البيـــت جانبَـــه

فهو ذلك الفارس الذي لا تستوعبه الأرض إن ضن به الأهل والأقارب، والغيور الذي لا يجافي أخوانه كالعطشان الذي لا يستغني عن الماء، كما إن جاره لا يناله الضيم مادام على قيد الحياة وهو ذلك الشريف الذي لا يسترق النظر الى جارته إن كشفت الرياح ستر بيتها.

وتبدو في الأبيات بنية سردية متماسكة، أطرافها السائل أو السائلة (المفترضين) والصعلوك (المسؤول) والشاعر (المجيب) وقد فصل عروة بين الصعلوك وبين شخصه في البيتين الأول والثاني فلم يقل: (ومن يسألني) وكأنه بصدد وضع دستوراً عاماً لا شخصياً للصعلوك فظهر وكأنه لا يتحدث عن نفسه إنما أسقط مشاعره على مجموعة الصعاليك برمتها لكنه في الأبيات الثالث والرابع والخامس التفت من خطاب الغائب الى التحدث بضمير المتكلم ليوحي الى السامع (القارئ) بأنه يفتخر أن يتصف بالصفات التي ذكرها بوصفه صعلوكاً.

ولطالما أقترن إسراف عروة في الكرم بوجود من يلومه ويحاول عذله (زوجته، عاذله، شخص آخر) مما دفع بالشاعر الى تجسيد ذلك في حواريات رائعة في شعره، تدور كلها على رسم شخصية الصعلوك الذي يستهين بالمال ولا يرى ضرورة اشتراك الآخرين فيما يحصل عليه يقول عروة [٤٥]:

أقلـــي علـــي اللـــوم يابنـــت منـــذر
ونـــامي وإن لم تشـــتهي النـــوم فأســـهري
ذريـــني ونفســـي، أم حســـان، إنـــني
بهـــا قبـــل أن لا أملـــك البيـــع مشـــتري

وفي مكان آخر يقول [٤٦]:

تقـــول: ألا أقصـــر مـــن الغـــزو وأشـــتكي
لهـــا القـــول، طـــرف أحـــور العـــين دامـــعَ
ســـأغنيك عـــن رجـــع المـــلام بمزمـــع
مـــن الأمـــر لا يعشـــو عليـــه المطـــاوعَ

٤٥ - م.ن: ٤١.
٤٦ - م. ن: ٦٣.

http://abu.edu.iq

وفي حواريه أخرى يقول [٤٧]:

تقـــول ســـليمى: لـــو أقمـــت لســـرنا

ولم تـــــدر أنـــــي للمقـــــام أطـــــوفَ

اذا قلـــت: قـــد جـــاء الغنـــى حـــال دونـــه

أبـــو صـــبية يشـــكو المفـــاقر أعجـــفَ

في هذه المحاورات نجد عناصر القصة واضحة فكلها تدور في زمان ومكان معينين فضلاً على وجود أشخاصها ووجود العقدة والحل الذي ((غالباً ما يكون.. مرضياً وسعيداً)) [٤٨] فالطرف الأول دائماً: العاذلة (ابنة منذر، القائلة، سليمى) أما الطرف الثاني: الشاعر الذي يحاول أن يجعل المحاورة تنتهي لصالحه مع أقناع الطرف الأول به أما العقدة الثالثة فتتمثل بـ (إرادة الخروج للغزو، توزيع الغنيمة) والسبب إطعام الفقراء، وغالباً ما تقترن هذه الحواريات بما يشبه الحكمة (ان لا أملك البيع مشتري، اذا قلت جاء الغنى مال دونه... أعجف) فهذه النزعة التوجيهية عند عروة لهي دلالة واضحة على أن الرجل يتمتع بنفس تربوي واصح فشعره ((في مجمله تعليمي حكمي رصين)) [٤٩].

المبحث الثالث: الشخصية المغتربة

إن العزلة الاجتماعية التي كانت واقعاً مفروضاً على الصعاليك كانت مصحوبة دائماً بحالة من الانفصام عن ذلك المجتمع، مما جعل الصعلوك وكأنه لا ينتمي الى واقعه، ذلك الواقع الذي لفظه مما ترتب على حالة اللا انتماء هذه أن يكون الصعلوك مغترباً حتى عن ذاته، وهذا النوع من ألاغتراب هو شكل من أشكال ((الضياع الذاتي وسط المجتمع، وفقدان الجوهر الإنساني الاجتماعي، والانسحاق تحت وطأة أيديولوجية مناقضة لواقع فردٍ ما، وهو وجود المرء في مجتمعه لكنه غريب فيه مستبعد)). [٥٠]

يمثل الصعلوك نموذجاً إنسانياً للاغتراب الذاتي يتجلى ذلك واضحاً من خلال المتن الشعري الصعلوكي الذي يظهر مدى المعاناة الإنسانية التي كان الصعاليك يعيشون وطأتها. إن ((موقف الشاعر من المجتمع في إطار الصعلكة يمثل موقفاً لإنسان مفرط الحساسية في مواجهة مجتمع فيه من الأسباب ما يدفع هذا الشاعر الى الثورة والتمرد والخروج عليه وتفضيل حياة التوحش والتفرد على الحياة في هذا المجتمع.)). [٥١]

وفي شعر عروة بن الورد تصادفنا أكثر من حالة من تمثلات الاغتراب، ففضلاً على كونه من الناقمين على مساوئ مجتمعه، فإن أمه لطالما كانت سبباً في جلب العار عليه، ولنا أن نتصور مقدار الأسى والغربة التي كان يعيشها عروة وفي كل لحظة تكون تلك الإنسانة التي أنجبته وشقيت لأجله سبباً لبؤسه يقول عروة: [٥٢]

---

٤٧ - م. ن: ٦٩. والأعجف: المهزول، الضعيف.
٤٨ - موسوعة الشعراء الصعاليك: ١ / ٥٨٠.
٤٩ - م.ن: ٢/ ٧٦
٥٠ - المعجم المفصل في الأدب: ١/ ١١٤.
٥١ - الأدب الجاهلي، قضايا وفنون ونصوص: ١٧٠.
٥٢ - ديوان عروة بن الورد: ٤٨. واللمة: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن.

http://abu.edu.iq

هـــــم عيرونـــــي أن أمـــــي غريبـــــة
وهـــــل في كـــــريم ماجـــــد مـــــا يعـــــيرَ
وقـــــد عيرونـــــي المـــــال حـــــين جمعتـــــه
وقـــــد عيرونـــــي الفقـــــر إذ أنـــــا مقـــــترَ
وعيرنـــــي قـــــومي شـــــبابي ولمـــــتي
متـــــى مايشـــــا رهـــــط امـــــرئٍ يـــــتعيرَ

إن الغربة فعل متجذر في شخصية الصعلوك وهذا عروة وهو سيد الصعاليك يجد نفسه أنه لا ينتمي الى مجتمعه الذي يوجه له العار بوصفه أبن (غريبة) ومرة أخرى يعير حين يجمع المال بحجة أنه مال مسلوب، ومرة ثالثة يعير لأنه فقير وكأنه شخص مستهدف في كل أحواله.

هذه الغربة تجعل من إحساس عروة بصعوبة العيش إحساسا مركباً قد يصل الى درجة اليأس، بدليل قوله: (٥٣)

ذريـــــني أطـــــوف في الـــــبلاد لعلـــــني
أخليـــــل أو أغنيـــــك عـــــن ســـــوء محضـــــري
فـــــإن فـــــاز ســـــهم للمنيـــــة لم أكـــــن
جزوعـــــاً وهـــــل عـــــن ذاك مـــــن متـــــأخرِ
وإن فـــــاز ســـــهمي كفكـــــم عـــــن مقاعـــــد
لكـــــم خلـــــف أدبـــــار البيـــــوت ومنظـــــرِ

إنها تصور قائمة يرسمها عروة لحياة البؤس الذي كان يحياها الصعاليك، فإن دلالة قوله (سوء محضري) وهو يكلم زوجته واضحة جداً على ضيقه من حياته وبرمه منها حتى يشعر بأن حياته أصبحت عبئاً على الآخر (زوجته) وهو حينما يطلب منها أن تدعه لمواجهة الموت فإن ذلك لا يعني شجاعة بقدر ما يعني رغبة في التخلص من هذه الحياة المجدبة، وفي هذه الأبيات نجد ان الشاعر هو من بادر زوجته في طلب الخروج، لكننا في أبيات أخرى نجد إن الزوجة هي التي تطلب منه ذلك، يقول عروة: (٥٤)

قالـــــت تماضـــــر إذ رأت مـــــالي خـــــوى
وجفـــــا الأقـــــارب فـــــالفؤاد قـــــريحَ
مـــــالي رأيتـــــك في النـــــدى منكســـــاً
وصـــــبا كأنـــــك في النـــــدى نطـــــيحَ
خـــــاطر بنفســـــك كـــــي تصـــــيب غنيمـــــة
إن القعـــــود مـــــع العيـــــال قبـــــيحَ

٥٣ - م. ن: ٤٢.
٥٤ - م.ن: ٢٤.

http://abu.edu.iq

المـــــــال فيـــــــه مهابـــــــة وتجلـــــــة
الفقـــــــر فيـــــــه مذلـــــــة وفضـــــــوحَ

يرى الباحث إن هذه الأبيات أشد دلالة على البؤس الذي كان يعانيه عروة من الأبيات السابقة لأن صورة الأسى والمعاناة حينما تتجاوز الفرد ليستشعرها الآخر لابد أن تكون قد بلغت مبلغاً كبيراً، لذلك فإن عروة يصور حاله هنا وكأنه موضوع استعطاف وشفقة من لدن زوجته الذي تراه (منكساً وصبا) لذلك فلا خيار له إلا المخاطرة بنفسه وقد أراد عروة في قوله على لسان زوجته (خاطر بنفسك) أمران يمكن نستقرئهما من النص ذاته ؛ الأول مدى البؤس الذي يكتنفه الى الحد الذي تطلب المخاطرة. أما الآخر فإنه يتمثل في كراهية أظهار الفقر والمذلة للأقارب بدليل قوله في البيت الأول (وجفا الأقارب) وقوله في البيت الأخير (المال فيه مهابة وتجلة)، وتمثل هذه الأقوال (نماذج جديدة للإنسان الذي يرفض الذل والهوان، ولاشك إن لهذه النماذج تأثيراً بعيداً في المجتمع حيث إنها تقدم إطاراً من السلوك الإنساني في مواجهة ما في المجتمع من مفارقات)). [٥٥]

ويقول عروة: [٥٦]

مـــــابي مـــــن عـــــار إخـــــال علمتـــــه
ســـــوى أن أخـــــوالي إذا نســـــبوا نهـــــدَ
اذا مـــــا أردت المجـــــد قصـــــر مجـــــدهم
فأعيـــــا علـــــي أن يقـــــاربني المجـــــدَ
فيـــــاليتهم لم يضـــــربوا في ضـــــربة
وأنـــــي عبـــــد فـــــيهم وأبـــــي عبـــــدَ
ثعالـــــب في الحـــــرب العـــــوان فـــــإن تـــــبح
وتنفـــــرج الحلـــــى فـــــإنهم الأســـــدَ

الأبيات واضحة المقاصد إذ تتجلى فيها حسرة الشاعر كون أخواله قبيلة نهد ويرى إن ذلك غير كاف لما يلاقيه من أزدراء المجتمع، ودلالة (سوى) واضحة في تهوينه لما يعده المجتمع سبباً للنبذ والرفض، أما قوله (فاعيا عليّ أن يقاربني المجد) فإنه يصور مرارة ما يتجرعه الصعلوك – عروة هنا – جراء هذا الأمر.

يقول عروة: [٥٧]

أعيرتمـــــــوني ان أمـــــــي تريعـــــــة
وهـــــل يـــــنجبن في القـــــوم غـــــير الترائـــــعَ

تتجلى الذات المقهورة في هذين البيتين من خلال اللفظة (أعيرتموني) ومن البديهي أن يحاول الشاعر بوعي منه أو بصورة لاواعية أن ينتقم لذاته المعذبة عن طريق إظهار الآخر (الذي عيّره) وكأنه لا يدرك

٥٥ - الأدب الجاهلي، قضايا وفنون ونصوص: ١٦٧.
٥٦ - ديوان عروة بن الورد: ٢٦.
٥٧ - م.ن: ٢٩٣. والتريعة: الفاحشة الخفيفة.

http://abu.edu.iq

الحقائق (وهل ينجبن في القوم غير الترائع) ليخلق حالة من الموازنة النفسية المستندة الى مجموعة من القيم والمشاعر الخفية التي ((يصعب أن تطفو على المنطقة الشعورية ألا بباعث أو شحنة انفعالية، فتخرج حينئذ خروجاً عضوياً من دائرة عدم التوازن التي تعتري الذات المبدعة)). [٥٨]

يقول عروة: [٥٩]

فمـــا شـــاب رأســـي مـــن ســـنين تتابعـــت

طـــــوال ولكـــــن شـــــيبته الوقـــــائعَ

إن تقديم البيت بالنفي (ما شاب) يمثل إجراءاً وقائياً ضد النظر الى ظهور الشيب وكأنه متأت من فعل السنين، ولابد أن يفهم هذا الأمر بدلالته الخفيفة على أن الشاعر يقف موقف المتحدي لصعوبات الحياة حيث أن الشيب مع تقدم العمر يعد مسألة طبيعية ولا فخر في ذلك إنما الفخر أن يكون ذلك الشيب دليلاً على تمرسه بالوقائع ومكابداته الأهوال ، وعلى هذا الأساس يكون من الأفضل توجيه البيت الى معنى الفخر، لا الشكوى.

يقول عروة: [٦٠]

فراشـــي فـــراش الضـــيف والبيـــت بيتـــه

ولم يلـــــهني عنـــــه غـــــزالٌ مقنـــــعَ

أحدثـــــه إن الحـــــديث مـــــن القـــــرى

وتعلـــــم نفســـــي إنـــــه ســـــوف يهجـــــعَ

يذكر الشاعر هنا مدلولات الكرم العربي الذي يتحلى بها – الصعلوك (إيواء الضيف، إطعامه، مؤانسته بالحديث) لكنه ومن خلال الضمائر الشخصية في (فراشي، يلهني، أحدثه، نفسي) يحاول نسبة الكرم الى نفسه للوصول الى محصلة تصب في إظهار الذات بوجهها الحسن بوصف ذلك يمثل اجراءً وقائياً ضد حالة الاغتراب الاجتماعي التي يعانيها الشاعر فهو مدرك تماماً أن الكرم غاية ما يتصف به الإنسان من قيم نبيلة، وقد تشي الأبيات بدلالة أخرى مفادها إن الشاعر لا يملك سوى ما ذكره على تواضعه مع ذلك فهو لا يبخل به على ضيقه، فالكرم بما هو ضروري للإنسان أبلغ من الكرم بما هو فائض عنده.

ومن أهم بواعث الاغتراب ؛ الإحباط الذي تظهر تأثيراته على الفرد نتيجة موقف نفسي حاد، أو نتيجة لموقف خارجي يترك آثاره بينة على الشخص ومن الناحية الإبداعية يتحول الإحباط الى ((قوة وهاجة لتحريك مشاعر الفنان وعاملاً فعالاً لنشاطه الإبداعي الناتج عن مبدأ قانون التعويض النفسي الذي يقابل مكان الرغبات الجنسية عند فرويد)). [٦١]

٥٨ - الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي: ٢٩٣.
٥٩ - الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي: ٢٩٣.
٦٠ - ديوان عروة بن الورد: ٦٤.
٦١ - الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي: ٦٨.

http://abu.edu.iq

ويتجلى ذلك واضحاً في شعر عروة بن الورد الذي نذر نفسه لمساعدة المحتاجين والفقراء من الصعاليك لكنه قد يقابل بالجحود والعقوق وهذا ما حصل فعلاً في قصة مشهورة دارت بينه وبين ثلة من الصعاليك في سنة مجدبة حينما دفعه أخلاصه لهم وإحساسه بالمسؤولية الإنسانية الى أن يغزو أحد الأغنياء الذي يمتلك مئة من الإبل فيقتله ويأخذ ما يملكه من الإبل وامرأته، ليوزع تلك الإبل على أولئك الفقراء، لكنه فوجئ بأن هؤلاء قد تمادوا في الطلب لتكون المرأة السبية نصيبهم، مما أسخط عروة وهم بقتلهم[٦٢] وقد شكلت هذه الحادثة عامل إحباط كبير في نفس عروة فقد كانت تصرفات هؤلاء الأصدقاء والمقربين وسلوكياتهم غير المتزنة باعثاً قوياً على شعوره بالاغتراب، ففي مقطوعة مؤثرة يجسد معاناته النفسية جراء تنكر هؤلاء الصعاليك له بعد أن أكرمهم وأفاض عليهم مما عنده، يقول عروة:[٦٣]

فـــإني وإيـــاكم كـــذي الأم أرهنـــت
لـــه مـــاء عينيهـــا تفـــدي وتحمـــلَ
فلمـــا ترجـــت نفعـــه وشـــبابه
أتـــت دونهـــا أخـــرى جديـــد تكحـــلَ
فباتـــت بحـــد المـــرفقين كليهمـــا
توحـــوح ممـــا نابهـــا وتولـــولَ
تخـــير مـــن أمـــرين ليســـا بغبطـــة
هـــو الثكـــل إلا إنهـــا قـــد تجمـــلَ

يرسم عروة لوحة جميلة وصورة نفسية معبرة عناصرها: المشبه = الشاعر (فإني) والمشبه به = الأم الثكلى بابنها التي سهرت لأجله، وأداة التشبيه الكاف (كذي الأم) ووجه الشبه = جحود هؤلاء القوم له، ومن المؤكد ان دلالة الصورة قد تتخذ أكثر من مسار، فهي فضلاً على كونها تجسد معاناة الشاعر فإنها في الوقت ذاته تجسد رؤيته في عدم رغبته أن يكون الصعلوك بهذا النمط المتجافي من السلوك لاسيما إذا عرفنا أن المقصودين بقوله (إياكم) مجموعة من الصعاليك.

وفي موقف مشابه آخر يتنكر له اثنان من أصحابه حينما طالب منهم شيئاً مما غنماه فأبيا مما اثأر حفيظته، فقال:[٦٤]

أأي النـــاس آمـــن بعـــد بلـــج
وقـــرة صـــاحبي بـــذي طـــلالِ
ألمـــا أغـــزرت في العـــس بـــرك
ودرعـــة بنتهـــا نســـيا فعـــالي

٦٢ - ديوان عروة بن الورد: ٧٦.
٦٣ - م. ن: ٧٨. وفي البيت الثاني يقصد الشاعر الزوجة التي تأخذ الابن من امه، وتوحوح: تصوت بصوت فيه بحة.
٦٤ - م. ن: ٨١. وذي طلال: موضع قرب الربذة، والعس: القدح الكبير، والبرك ودرعة: عنزتان. وفي البيت الثالث يقصد بالربيع ما ينبت في الربيع، والضبط: السمان، واللبالب: الجلبة، والسخال: اولاد المعز.

http://abu.edu.iq

سمـــــن علـــــى الربيـــــع فهـــــن ضـــــبط

لهـــــن لبالـــــب تحـــــت الســـــخالِ

في هذه الأبيات يبدو الإحباط واضح بدلالة قوله (نسيا فعالي) وهو يريد صاحبيه (بلج وقرة) وقد أبرزت صبغة الاستفهام في البيتين الأول والثاني حيرة الرجل وذهوله جراء موقف هذين الصديقين ولاسيما البيت الأول مما ولد عنده نزوعاً قد يكون لاشعورياً لإثبات ذاته وإن كانت محبطة من حيث إن هذا النزوع غالباً ما يكون ((قوة دافعة لرغباته الطموحة الى مبدأ التفوق في محاولة إثبات وتأكيد الوجود)). [٦٥]

الخاتمة

وهنا تقف رحلتنا مع عروة لنسترجع مع الذاكرة عددا من مواقف شاعرنا الذي حاز السبق في مروءته وإنسانيته، من خلال ما مر من مقطعات وأبيات، تلك المروءة التي جسدها عروة في شعره وهو يرسم صور الصعلوك النبيل الذي يجعل من حياته وسيلة لإسعاد الآخرين وقبل هذا وجد الباحث أن تلك الصور لم تكن نفسها التي وجدت في ما كتب عن الصعاليك والتي شوهت كثيراً، بل وجدها صورة مشرقة طامحة اشتراكية وإن كانت هموم الفقر والتشرد كثيراً ما قادتها الى الإحباط والشعور بالاغتراب. وقد لوحظ من خلال البحث:

- إن عروة كان أكثر من صعلوك بالمفهوم المتعارف للصعلوك، فقد كان سيد الصعاليك وأبوهم الذي يحنو عليهم وعلى الفقراء أينما وجدوا.
- شكلت لوحة الصعلوك جزءً مهماً من شعر عروة كمطلب نفسي لما يجب أن يكون عليه الصعلوك.
- إن لوحة (العاذلة أو السائلة) قد أخذت حيزاً مهماً في المتن الصعلوكي في شعر عروة.
- غالباً ما كانت مقطعات عروة تمثل حواريات سردية تتضمن أكثر عناصر السرد القصصي.
- وضوح النبرة الذاتية وتعالي (الأنا) على حساب (النحن) ليس بطريقة التنكر لهذه الـ (نحن) بل على الضد فالأنا عند عروة مشروع من أجل (النحن).
- يرى الباحث ضرورة التوجه للكشف عن المخابئ الجمالية في السفر الصعلوكي بوصفه منجماً لما يستثمر بعد.

ومن الله التوفيق

المصادر

- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، عبد القادر فيدوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٢.
- الأدب الجاهلي، قضايا وفنون ونصوص، د. يوسف عبد الغني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣.
- الاشتقاق، ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١ هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٥٨.

٦٥ - الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي: ٦٨.

http://abu.edu.iq

- البنية السردية في شعر الصعاليك، آ. د ضياء غني لفته، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٠.
- تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي - ، دكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٧٦.
- الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا فاخوري، منشورات ذوي القربى، إيران، ط٣، ١٣٨٥ هـ.
- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دكتور أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، د. ت.
- ديوان السليك بن السلكة، تحقيق طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- ديوان الشنفرى، تحقيق طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- ديوان عروة بن الورد، تحقيق وشرح كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، د. ت.
- رسالة الصاهل والشاحج، لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ) تحقيق د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨٤.
- شعر الصعاليك، منهجه وخصائصه، عبد الحليم حنفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩.
- الشعر والشعراء، إبن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦.
- الشعراء الصعاليك في العصر الإسلامي، د. حسين عطوان، دار المعارف، مصر، د. ت.
- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د. حسين عطوان، دار المعارف، مصر، د. ت.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، الدكتور يوسف خليف، دار المعارف، مصر، د. ت.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. حسين عطوان، دار المعارف، مصر، د. ت.
- الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، د. حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١ هـ) نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، مؤسسة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.
- لسان العرب، لإبن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر.
- المذاكرة في القاب الشعراء، ابو المجد اسعد بن ابراهيم الشيباني الأربيلي، المعروف بـ (النشابي) (ت ٦٥٧ هـ) تحقيق شاكر العاشور، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٨.
- المعجم المفصل في الأدب، إعداد الدكتور محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٠.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) تحقيق أحمد جاد، راجعه أ.د.عبد الرحمن محمد الطاهر، دار الغد الجديد، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٧م.

موسوعة الشعراء الصعاليك، د. حسن جعفر نور الدين، شركة رشاد برس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٧.

http://abu.edu.iq